# الكتابة والكتب ودورها[١]

أرأيتم المصريين الاقدمين وقد تركوا لنا كتبهم منقوشة على صفحات الجبال وفي بطون المغارات وعلى احجار المباني والاهرام والمسلات ؟

ام هل اتاكم حديث الاشوريين ؟ فقد اكتشف المنقبون في هذه الايام مصاحفهم مرقومة على اللبن ، وهو الطوب المشوي او المطبوخ . وذلك لان ارض ما بين النهرين مكونة من طمي دجلة والفرات فليس فيها جبل ولا حجر . ولكن ذلك لم يقف حجر عثرة في سبيل الغرام بالكتب . فصاروا يرقمون بالمسمار على الطين وهو نيء ثم يطبخونه في النار ، استبقاء لكتابتهم على مر الادهار والاعصار

ثم انتشر هذا الغرام في مصر وعم وطم ، فاحتاج القوم لزيادة الكتابة ، واحسوا بما في النقش على الاحجار من الصعوبة ، فعادوا الى الطبيعة ، وهي الهادي الاكبر للبشر ، أخذوا البردي وعالجوه بما جعله صالحاً للكتابة ، وهاهي آثاره في دار العاديات المصرية بقصر النيل في القاهرة ، واكثرها في متاحف اوربا ، واما الصين والهند ، فقد كفتهم دودة القز هذه المؤونة ، في القيام بما يدعوهم اليه الولوع بالكتب والكتابة ، واذا نظرت الى بني الاصفر وأعني بهم اليونان والرومان تجدهم قد استعانوا بالحيوان ، فدبغوا الجلود وصنعوا منها ما يسمونه بالرقوق

واول من استنبط ذلك الاغارقة من اهل فرغامة ، وهي مدينة بآسيا الصغرى تسمى عندهم برغامة Pergame اشتهر اصطناعها في هذا المصنوع من الرقوق ، ولا يزال باقياً عند جميع الافرنج الى الآن ، فان اهل ايطاليا يسمون الرق (بفتح الراء) برغامينو Pergamino اي الفرغامي لان العرب تقلب الباء الفارسية الى الفاء لقرب المخرج كما قالوا في Platon افلاطون وهكذا . واما الاسم العربي فهو مأخوذ من ترقيق الجلد بعد دبغه .

اما العرب فبلادهم جرداء قحلاء لم ينقشوا على الاحجار ، ولم يطبخوا الطين على النار ، ولم يهتدوا الى صناعة الترقيق . ولكن ذلك لم يكن حائلاً دون غرامهم بالكتابة والكتب . فكانوا قبل الاسلام في عصر النبوة يكتبون في عسب النخل اي العروق

---

(١) من محاضرة لاحمد بك زكي احد الباحثين العاملين في عصرنا القاها في نادي موظفي الحكومة في الاسكندرية في شهر رمضان الماضي

الجريد لكثرة هذه الشجرة المباركة في بلادهم . ويكتبون على الواح العظام ( وكثرتها ناشئة عن ذبح الاضاحي ) او يكتبون على نوع من الاحجار المصقولة التي يلتقطونها من قيعانهم وبواديهم .

والمقصود بالكلام على العرب دون سواهم من الامم الاخرى . فانهم ما لبثوا في خلافة الصديق ومن جاء بعده من الخلفاء ، ان انتشروا في الارض فاخذوا عن اهلها اساليب الحضارة . ثم احتاجوا الى التبسط في الكتابة ، لاتساع الملك واستبحار العمران . فكتبوا في العراق على الحرير وسموه بالمهارق . وكتبوا في مصر على البردي ولا تزال آثاره باقية الى اليوم وبعضها في القاهرة في دار الكتب الخديوية . وكانوا يكتبون على هذا البردي باللغة العربية وحدها تارة ، ومصحوبة بالترجمة الرومية او القبطية تارة اخرى . ولا تزال هذه سنة مطردة في ديارنا ، اقتضتها سنة الاحتياج الى التفاهم مثال ذلك : الآثار واوراق البردي في عهد اليونان نراها مكتوبة بلغتهم وباللسان المصري القديم ، وفي عهد الرومان حل اللسان اللاطيني محل اليوناني ، حتى جاء العرب فكان من شأنهم ما ذكرنا . ثم انقضت مدة طويلة من ايام الطولونيين الى آخر الدولة الايوبية استقل فيها اللسان العربي . حتى جاءت دولة المماليك البحرية والجركسية فاندمجت في اللغة العربية بعض الفاظ واصطلاحات دخيلة من التركية . ثم جاءت دولة العثمانيين فكانت السيادة في مصر للمماليك الاتراك حينئذ فانتشرت اللغة التركية وصارت تزاحم لغة البلاد . واستمر الحال على ذلك بعد جلوس الفرد الفذ العظيم « محمد علي » باني مصر الجديد الى ايام سعيد . وبعد ذلك بدأت الفرنساوية تحل محل التركية . وها هي الآن تتأخر في الميدان امام اللغة الانكليزية . والحق يقال ان لغة البلاد اخذت في الانتعاش كثيراً بفضل سمو الخديو عباس الثاني وفضل حكومته الرشيدة السعيدة . وبفضل العلماء والجرائد [illegible] التأليف حسنة جليلة من اكبر محاسن الحكومة الحاضرة يرتفع بها منار هذا اللسان وتتقدم معها آداب العرب وعلومهم .

نرجع الى الكتابة والكتب فنقول ان العرب ما لبثوا ان استخدموا الجلود بعد ترقيقها وكان من مزاياها عندهم انهم كانوا يغسلونها ويعيدون الكتابة عليها . فرأوا ان ذلك ان كان صالحاً في بعض المعاملات الوقتية ففيه ضرر كبير على العلم كما رأوا من جهة اخرى ان الحرير يدعو الى مؤونة كبيرة مع ان الحاجة ماسة الى الاكثار منه ومن الرق . ولما رأوا في ايام هارون الرشيد انهم كانوا مقلدين لغيرهم من الامم وان ما وصلوا

اليه من الحضارة والعمران يوجب عليهم الاخذ باسباب الاختراع والاستنباط . فكانوا اول من اصطنع الورق على هذا الشكل الباقي الى ايامنا هذه و[illegible] ذلك تجاراً . وقد سموه الكاغد (١) ثم القرطاس ثم شاع اسم الورق وانتشرت معامل الورق من الحرفة الى [illegible] الكهنة في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط ثم انتقل الى بلاد الغرب فكان لهذه الصناعة شأن كبير في بلاد الاندلس واشتهرت مدينة شاطبة بمعاملها ومصنوعاتها التي فاقت في الجودة والاحسان والاتقان وارتقت على معامله اهل المشرق من هذا الباب ومن شاطبة كان الكاغد يحمل الى سائر بلاد الاندلس . ومن هناك انتقل الى اوربا (فرنسا) ثم الى بقية دول اوربا وقد ابلغه القوم في هذه الايام الى نهايات ما يخطر بالاحلام واتوا في ذلك بالعجب العجاب حتى صاروا يصنعونه من الاخشاب وانقرضت هذه الصناعة من ديار الشرق كلها [illegible] في غيره ليا وفي غيرها

حينئذ توفرت عند العرب الاسباب المادية والعقلية فابدعوا في التصنيف واغربوا في التأليف وتهافتوا الى جمع الكتب ونشطا ايستوي في ذلك السلطان والسوقة والخاصة والعامة والرجال والنساء وجميع الطبقات حتى كثرت دور الكتب في القاهرة وامهات

---

(١) اما الكاغد فهو لفظ فارسي وقد كان لهذه اللغة الفارسية تأثير يذكر في العربية ايام العباسيين لان الفرس هم الذين رفعوا قواعدها وشيدوا دعائمها وكان رجالاتهم هم المدونون لامرها في اول قيامها ثم في ايام الخليفة السابع وهو المأمون بن هرون . وفي ايامه اخذوا ايضاً عن الروم عنهم ومنهم فنقلوا لفظة Carta اليونانية وعربوها وهي بصيغة الجمع فقالوا قرطاس والغريب في هذا الموضوع ان ائمة اللغة نصوا على ان القرطاس يقال بضم القاف او بكسرها واجمعوا على ان الفتح لغة واحدة . وهو امر غريب لان الفتح اقرب على اللسان واقرب الى الاصل . وهذه اللفظة عربها المصريون في ايام محمد علي في ضمن الاصطلاحات الجغرافية فقالوا خرطة محاكاة للفظة على الطريقة اليونانية للدلالة على الصورات الجغرافية التي سماها ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار بلوح الرسم والتي ورد اسمها في بعض نسخ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي هكذا (لوح الترسيم) وانا اظن كثيراً ان هذه اللفظة من تحريف النساخ او المساخ وان صحتها لوح الرسم كما رأيته في موصوفات ابن فضل الله التي ذكرتها لكم . ثم ان المتعربين في اللغة عربوا لفظة خرطة فقالوا خريطة وخرائط وما دروا ان ذلك الامر موضوع [illegible] الالباب ولكن قد كان ما كان

المدائن المصرية بدرجة لا تتصورها الآن لأن بلادنا اصبحت خلواً منها بالمرة لولا تلك البقية القليلة الباقية في دار الكتب الخديوية وفي الازهر الشريف وتليها المكتبة الحديثة التي انشأتها البلدية في الاسكندرية . اما البيوتات فقد اصبح عددها اقل من اصابع اليد الواحدة واولها بيت السادات يتلوه بيت البكري فبيت المرحوم رفاعة وعبد الله فكري . اما الافراد فقد قلت النظائر الا عند المرحوم لطيف باشا سليم وبعده الفاضل احمد بك تيمور

وقد اردت ان احري على هذا المنوال وان كانت خطراتي صغيرة ويدي قصيرة ولكنني خشيت ان تذهب مجموعتي من بعدي للعطار والزيات والبقال او تتفرق شذر مذر كما حصل للمجموعة النفيسة التي كانت تزدان بها دار المرحوم علي مبارك باشا في حياته . لذلك جعلتها من الآن خاصة بالامة ولا ازال دائباً الى آخر ساعة من حياتي في توسيع نطاقها والزيادة فيها

اذا رجعنا بمصر الى التاريخ رأيناه يحدثنا عن دور الكتب في القاهرة فتأخذنا لوعة لمجرد هذا الوصف ونبكي على ذهاب العين والاثر

فدور الكتب التي اسسها الفواطم يحدثنا المقريزي عنها بما يثير الاشجان ويستمطر الدموع من الآماق . فقد كان في قصر الخلافة وحده اربعون خزانة كانت فيها النوادر والمطالع اخذ معظمها بعض الموظفين وبعض الاجناد الاتراك بدل مرتباتهم في ايام الشدة التي وقعت للخليفة المستنصر

وقد نهب وخرب لواتة شيئاً كثيراً منها اسهب المقريزي في وصفه ثم قال : ان عبيدهم واماءهم اخذوا جلودها يرتدون منها ما يلبسونه في ارجلهم واحرقوا ورقها تأولاً منهم انها خرجت من قصر السلطان اعز الله انصاره وان فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم سوى ما غرق وتلف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالاً باقية الى اليوم بناحية آثار تعرف بتلال الكتب

هذا عدا خزائن القصر الداخلة التي لا يتوصل اليها احد وعدا خزائن دار العلم بالقاهرة وهي مماثلة لما نسميه الآن اكاديميا او كما يقول صاحب كشف الظنون وابن ابي اصيبعة قبله ( اكاذيميا ) وسوى خزانة المارستان العتيق وقد بقيت الى ان بيعت في ايام صلاح الدين فاشترى القاضي الفاضل وحده منها مائة الف كتاب مجلد واودعها في المدرسة التي انشأها بالقاهرة . وفضل القاضي الفاضل ومكانته في الدولة الايوبية

يدلان على انه احدى افضل الكتب واحسنها ولكنها ذهبت بها الايام ايضاً فان الغلاء لما وقع بارض مصر في سنة ٦٩٤ صار طلبة هذه المدرسة يبيعون كل مجلد برغيف من الخبز . وبقيت منها بقية تداولتها ايدي الفقهاء بالعارية فتفرقت . وكان فيها مصحف اشتراه القاضي الفاضل بنيف وثلاثين الف دينار على انه مصحف الخليفة عثمان وكان في خزانة مفردة له غربي المحراب . وهذا القاضي الفاضل كان يقتني الكتب من كل فن ويجتلبها من كل جهة وله نساخ لا يفترون ومجلدون لا يبطلون . وقد بلغ مجموع كتبه قبل موته بعشرين سنة ١٢٤٠٠٠ فطلب ابنه مرة ان يقرأ ديوان الحماسة وتوصل الى ذلك ببعض الذين لديه فامر القاضي الفاضل فاحضر له خازنه ٣٥ نسخة فصار يتصفحها واحدة واحدة ويقول هذا بخط فلان وهذه بخط فلان حتى اتى على الجميع ثم قال ليس عندي ما يصلح للصبيان وامر بشراء نسخة بدينار لولده . وقد حضرت مجموعة رسائله في جملة ما احضره من الكتب

وقد بقي بعض الكتب من آثار الفاطميين في مصر وزاد عليها المماليك وجعلوا لها خزانة عمومية ولكنها احترقت في سنة ٦٩١ فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيء كثير جداً كان من ذخائر الملوك . والذي نجا من النار انتهبه الغلمان وباعوه بابخس الاثمان فاقتنى الناس منها صحائف محرقة فيها نفائس غريبة

ولم تكن هذه المدرسة هي الوحيدة في القاهرة فقد كانت خزائن الكتب في المساجد والجوامع والمدارس فضلاً عن القصور والمنازل . وحسبي الاشارة الى بعض المدارس التي امتازت بجمع الكتب النادرة منها المدرسة التي انشأها بمصر القديمة في سنة ٦٥٤ الوزير الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا (بكسر الحاء المهملة وتشديد النون المفتوحة كما ضبط الثقات من المؤرخين) فقد كانت فيها خزانة جليلة من الكتب النادرة ثم نقلها فبقيت عنده حتى مات فتفرقت في ايدي الناس وكذلك الملك الظاهر بيبرس البندقداري جعل في مدرسته الظاهرية خزانة كتب تشتمل على امهات الكتب في عامة العلوم

ولما تولى السلطان قلاوون جعل في قبته المنصورية خزانة للكتب في جميع انواع العلوم ولكن معظمها تفرق في ايدي الناس واقتدى به ابنه محمد فانشأ خزانة كتب بمدرسته التي شادها بجوار هذه القبة في الجهة المعروفة الآن بالنحاسين

واما اسماء الامراء والافراد فهي كثيرة جداً مثل الامير منكوتمر سيف الدين الحسامي والحاج سيف الدين آل ملك والامير سيف الدين الجاي والطواشي سابق الدين مثقال والطواشي سعد الدين بشير الجمدار . وهم الكل الامير جمال الدين محمود الاستادار

ولا انتقل من هذا الموضوع قبل ان اذكر لكم ان نساء مصر كان لهن مشاركة في هذه المأثرة وحصة كبيرة في الغرام بالكتب واكتفي الآن باسم الست عاشوراء بنت ساروج الاسدي وكانت عائشة في ايام صلاح الدين والست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون بنت الملك العادل الايوبي وكانت من فضليات اهل العلم واشتهرت بالبراعة في الفصاحة وفنون الادب والسيدة الجليلة الكبرى خوندتتر الحجازية بنت السلطان الناصر محمد بن قلاوون والست بركة ام السلطان الملك الاشرف شعبان والست ايدبكين زوجة الامير سيف الدين بكجا الناصري

وقد بدد الزمن آثار تلكم السيدات الكريمات فلم اقف على كتاب من تلك الخزائن الكثيرة وغاية الامر ان في دار الكتب الاهلية بباريس تحت نمرة ٢٧٥١ كتاباً في علم تعبير الرؤيا وهو مرتب على حروف الهجاء بشكل معجم ومكتوب في سنة ٨٣٣ هجرية برسم خزانة اميرة من اميرات مصر (احدى البرنسسات) وهي بنت السلطان الملك الظاهر جقمق

كان هذا الغرام عاماً في مصر وفي جميع بلاد الشرق . وخصوصاً في الممالك الخاضعة لصولجان صاحب التاج في القاهرة . التي كانت عاصمة للامبراطورية المصرية . والشواهد كثيرة على هذا الولوع وحسبي ان اذكر لكم اسماً واحداً من باب التدليل . وهو ابو الفدا سلطان حماه وصاحب التاريخ المشهور بالمختصر في اخبار البشر وصاحب الجغرافيا المسماة بتقويم البلدان الذي طبع وترجم في باريس قد جمع في خزانته من الكتب ما لا مزيد عليه وكان في خدمته ما ناهز مائتي معمم من الفقهاء والادباء والنحاة والمنجمين والفلاسفة والكتبة

ولو اردت ان استقصي ما اعرفه عن الكتب وغرام المولعين بها ايام كانت الحضارة الاسلامية زاهية زاهرة لطال المقام ولم تكفني الايام تتلوها الايام

وقبل الختام اذكر لكم قضية وقعت بمصر وهي من اغرب ما سطرته سجلات القضاء

ووقفت على كتاب اسمه كنز الدرر وجامع الغرر لابي بكر بن عبدالله بن ايبك الدواداري وهو نسخة في تسعة اجزاء ثمانية منها بمكتبة ايا صوفيا والتاسع الباقي بمكتبة طوب قبو بالقسطنطينية وهو في تاريخ مصر وفيه تفصيل غريب وبيان وافٍ لآراء في التواريخ التي وقعت اليها . وليس هذا محل الشرح عن هذا السفر الجليل النافع . وقد كان هذا الكتاب موقوفاً في احدى مدارس القاهرة فاغتصبه بعض الاكابر واوقفه في مدرسته وقفاً صحيحاً شرعياً مرعياً ادعت عليه نقيبة بطلان الحكم وحصلت المرافعة والمدافعة ثم اصدر القضاة حكمهم ببطلان الوقف الثاني واعادة الكتاب الى مقره الاول بالدرس والوقف الاول . ولقد اثبتت الادلة بطلان هذين الوقفين وانقسام الكتاب الى القسطنطينية في عهد الفتح والبعض في غير مصر

ان العرب في اتجاه اهل الفضل والعلم في جمع الكتب كانوا تلاميذ اليونانيين في الاسكندرية والرومانيين في رومية وكل منهما قد نسج على صنعة اجدادنا المصريين

اول من مدح الكتب على ما يقال انه التاريخ الصحيح هو اول من اسس لها داراً خصوصية بديار مصر وجعل منفعتها عمومية

الا لا عجب بعض الغلاة من العرب ومن تابعهم من المتهوسين الاعجميين الذين قالوا بوجود دور الكتب قبل حدوث الطوفان واخذوا يفسرون الاقاويل من هنا ومن هناك ويتيهون في الضلال في سير طال خبطهم في ذلك بغير ادلة وامارات . والاعمدة التي نقشوا عليها والصحف التي تركت في اهرامهم يمكننا ان نحكم بما هو وراء ذلك وهو اشد في الدروس حتى لا نخوض بحور الخيال ونسير في اودية الاوهام . وحسبنا ان نرجع الى ما هو ابعد اليوم باكثر من ٣٢٠٠ سنة فهنالك نصل الى التاريخ الثابت المنقوش في الاحجار والذي عولت عليه الاجيال والاعصر . فتلك الاطلال الباقية الى الآن في صعيد مصر تحدث بلسانها عن وطني بعيد وتاريخ ان اوسياندياس فرعون مصر الذي سماه اليونان سيزوستريس ورمسيس الثاني هو اول من اسس دار الكتب في مدينة طيبة بالصعيد وهو اول من مدح الكتب بعبارة وصلت الينا . وذلك انه نقش على باب تلك الدار كلمتين اثنتين جمعتا معنىً عظيماً وتلخيصاً لكل فوائدها

﴿ شفاء الارواح ﴾

ولعمري ان هاتين الكلمتين لابلغ من كل ما جادت به القرائح بعده في شرق البلاد وغربها وما هو مأثور عن جميع الامم وعربها

وعن المصريين اقتبس اليونان علومهم ومعارفهم ونظاماتهم ولكنهم لما جاء الدور لم يتيسر لهم انشاء مكتبة عمومية الا بعد الفرعون المصري بربوات من السنين لاتقل عن الخمسة القرون وذلك ان طاغية بيسسترات هو اول من احدث بمدينة أثينس ( أي اثينا ) داراً من هذا القبيل لاستفادة الخاص والعام وكان ذلك قبل القرن السادس للميلاد وجمع فيها اشعار اوميروس بعد ان تلقفها من افواه الرواة كما كان شأن العرب من مدة اثني عشر قرناً في ايام بني امية وبني العباس . وما لبثت هذه الدور ان انتشرت بارض اليونان كما يشهد بذلك بيت قاله شاعرهم ارسطوفان

وفي يد كل انسان كتاب    يلقنه افانين العلوم

وتولع اليونان بجمع الكتب والحث عليها لدرجة لاتكاد تكون محمودة : دخل حاكم الى مدرسة النحو باثينا فطلب من الاستاذ نسخة من ديوان اوميروس . فاعلمه المعلم بعدم وجودها فما كان من الحاكم في هذه الاحوال الا ان صفعه وخرج

ثم تهوس القوم بجمع الكتب من غير استفادة او افادة حتى رأى اديبهم لوسيان الشميشاطي ان يكتب رسالة بليغة في هجو رجل جمع من الكتب طائفة وفيرة لمجرد الاشتهار بانه جماع للكتب . قال ذلك الاديب يخاطب ذلك المذموم بما ترجمته

« في وسعك ان تعير الكتب لغيرك فتكسب اجراً وفيراً ولكن ليس في طاقتك ان تستفيد منها فتيلا ولا قطميراً . على انك ما اعرت منها احداً شيئاً مذكوراً فكان مثلك كالكلاب التي تنام في اسطبل الدواب فهي لاتقدر على اكل ما فيه من الشعير ولكنها تمنع منها الخيل وهي قديرة على الانتفاع باكله »

ولو تأخر هذا الاديب المجيد لخر ساجداً اذا سمع قول الكتاب المجيد « مثلهم كالحمار يحمل اسفاراً » فانظروا يارعاكم الله الى حسن الديباجة والى هاتيك الاجادة : واما قول لوسيان فما اشبهه بقول الجاحظ ولكن في ذم الخصيان ولا ازيد على هذا البيان بغير الاشارة عليكم بمراجعة كتاب الحيوان واليكم مثلاً مما قاله العرب في ذم من يجمع الكتب وهو لا يدري بما فيها

زوامل الاخبار لا علم عندهم    بجيدها الا كعلم الاباعر
لعمرك ما يدري البعير اذا غدا    باحماله او راح ما في الغرائر

فلما جاء دور الرومان انشأ الامبراطور يوليان المشهور بالمرتد وفي كتب العرب بالمارق

دار كتب في القسطنطينية واراد ان يتشبه بفرعون مصر ولكنه لم يبلغ شأوه فكتب على بابها هذه العبارة .

« لبعض الناس صبابة بالخيل ولبعضهم ولع بالطير ولآخرين غرام بالوحش واما انا فقد تدلهت منذ نعومة اظفاري بشراء الكتب واقتنائها »

ومما امتازت به مدينة القسطنطينية انها في ايام النصرانية حفظت في كنائسها علوم الاقدمين حتى جاء العرب فاستفادوا منها ونشروها من قبورها وكان لهم بهذه الوسيلة القدح المعلى في ترقية الحضارة وبني الانسان وكذلك امتازت في ايام الاسلام بحفظ ما جادت به قرائح العرب الكرام في مساجدها وما علينا سوى اقتفاء اثرهم واتباع سنتهم . وقد فتحت تلك الباب وحسبي ذلك فخراً

جاء العرب في ايام العباسيين فانتهت اليهم كلمة عن سقراط فكانت محركة لعزائمهم وجعلتهم ائمة الامم وقادة الافكار

قيل لهذا الفيلسوف اما تخشى على عينيك من ادامة النظر في الكتب فقال : اذا سلمت البصيرة لم احفل بسقام البصر

وفي هذا المقام لا يصح اغفال ذكر المأمون فهو اول من اسس دار كتب عامة في الاسلام وسماها بيت الحكمة كما انه اول من اسس مجمعاً علمياً ( اكاذيميا ) وسماه دار العلم . هذا فضلاً عن خزانة كتبه الخصوصية التي يروي لنا عنها ابن النديم كل معجب ومطرب

كان بمدينة الاسكندرية حاكم يسمى خليل ابن شاهين الظاهري اشتهر بتأليفين احدهما في علم اليقظة والآخر في علم المنام فاما الاول فهو كتاب زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك ثم اختصره وسماه زبدة كشف الممالك وهو كتاب مفيد في وصف بلاده واعمالها ودواوينها ووظائفها وقطاعاتها وغير ذلك من محاسن هذه المملكة مع سرد ابيات مما قاله بعض ملوكها وسلاطينها الى غير ذلك من النوادر والفوائد ولا حاجة الى بيان القول ـــ لكن انه لا يوجد من هذا الاثر النفيس ولا نسخة واحدة مخطوطة بديار مصر كلها وهي وطن مؤلفه بل هي موضوعه ومدار مباحثه .

اما الكتاب الثاني فقد سماه « الاشارات في علم العبارات » والعبارة هي تعبير الرؤيا وتفسير الاحلام واسم العلم بالفرنسوية مأخوذ عن اليونانية

قال صاحب كشف الظنون : « كانت العرب في صدر الاسلام لا تعتني بشيء من العلوم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها وبصناعة الطب فانها كانت موجودة عند افراد منهم لحاجة الناس طراً اليها . وذلك منهم صوناً لقواعد الاسلام وعقائد اهله عن تطرق الخلل من علوم الاوائل قبل الرسوخ والاحكام » واقول ان الشارع هو الذي دعاهم الى تقييد العلم على اطلاقه فقد جاء في الحديث الشريف :

العلم صيد والكتابة قيد . قيدوا رحمكم الله علومكم بالكتابة

اخذ الشاعر قول الشارع فصاغه في بيت شعر ونظم بارع

العلم صيد والكتابة قيده    قيد صيودك بالحبال الواثقه

ثم مدحوا الكتب كما مدحها فرعون مصر وقياصرة الروم من قبلهم فقال العتابي وهو من اجلاء عصر الامين والمأمون

لنا ندماء لانمل حديثهم    امينون مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى    ورأيا وتأديباً وامراً مسددا
بلا علة تخشى ولا خوف ريبة    ولا نتقي منهم بناناً ولا يدا
فان قلت هم احياء لست بكاذب    وان قلت هم موتى فلست مفندا

ومدحها ابن طباطبا العلوي

لله اخوان افادوا مفخرا    في وصلهم ووفاقهم ان كثروا
هم ناطقون بغير السنة ترى    هم فاحصون عن السرائر تضمر
ان ابغ من عرب ومن عجم معاً    علماً مضى فيه الدفاتر تخبر
حتى كأني شاهد لزمانها    ولقد مضت من دون ذلك اعصر
خطباء ان ابغ الخطابة يرتقوا    كرسي كفي للدفاتر منبر
كم قد بلوت بها الرجال وانما    عقل الفتى بكتاب علم يسبر
كم قد هزمت بها جليساً مبرماً    لا يستطيع له الهزيمة عسكر

وهو ينظر بقوله الاخير الى جواب جالينوس فقد قيل له : لم كان الرجل الثقيل اثقل من الحمل الثقيل فقال لان ثقله على القلب دون الجوارح ، والحمل الثقيل يستعين القلب بالجوارح عليه

وفي ذلك المعنى الذي اشار اليه ابن طباطبا وهو في عصر قول لمونتسكيو ( ابن

خلدون (ترسا) وهو في باريس قال ما ترجمته : ما حل بي خطب من الهموم الا بددته بساعة واحدة من القراءة .

ومدح العرب الكتب كثير جداً نكتفي منه بكلمة واحدة منثورة : اهدى بعض الكتاب الى صديق له دفتراً وكتب اليه : هديتي هذه اعزك الله تزكو على الانفاق وتربو على الكد . لا تفسدها العواري ولا تخلقها كثرة التقليب . وهي انس في الليل والنهار والسفر والحضر وتصلح للدنيا والآخرة . وتؤنس في الخلوة وتمتع في الوحدة . مسامر مطواع ونديم صدوق .

وقال آخر : الكتب بساتين العلماء

ولكن كل هذه الاقوال وما شابهها مما يروى عن المتقدمين والمتأخرين لا تعادل الكلمتين اللتين قالهما فرعون مصر عن الكتب

شفاء الارواح

ولقد قام رجل من مشاهير الانكليز في اوائل القرن التاسع عشر وهو الدكتور [illegible] يثبت فائدة مطالعة الكتب لازالة انواع الامراض قال ما خلاصته : لقد خطر في ضميري ان العلم ودور الكتب في شفاء جديد مفيد فبدلاً من ان يكون مكتظاً الحزين بالعقاقير والادوية فلتعطه هذه الكتب . ثقة . علم طبيعيا من التمريض ونحو ذلك السير باستبدال هذه الكتب بادوية الامراض التي تنتاب الجسم والروح مما يمكن مداواته بالمركبات الموجودة فيها من داء الغفلة الى الحب الى الوساوس فهذا النوع الاخير من الاسقام يصلح له قراءة الكتب المؤلفة مع مطبوع النصح في قليل من ايام العلاج فاذا غشي الانسان هم من الهموم التي يمكن ازالتها مثل هذه تغشى الانسان او معاكسة الاعداء او معاندة الزمان ففي هذه الحال يحسن بالمصاب ان يقرأ تراجم الاعيان والافراد فيتسلى بما اصابهم من البلايا ويزول مرضه باذن الله . فاذا ما حل الهم والغم فالروايات الخيالية هي الدواء الشافي . ولكن اذا حلت بالانسان مصيبة فادحة وجب عليه ان ينصرف بكل عقله وقلبه الى عمل من الاعمال الجائزة التي تحوله عن نفسه وما حل به من الارزاء

واستشهد المتشيع لهذا الطب الجديد الغريب بالحكيم شاعر الالمان ( جيته ) قال انه حينما مات ولده تفرغ للدراسة على حدة وقيل انه اكمل فصول بعض رواياته الادبية حينذاك في غاية البلاغة والاعجاز

فانظروا الآن الى ما صنعه الاسكندر الاكبر حينما هزم دارا ملك الفرس فانه ظفر في جملة الغنائم الملوكية بصندوق بديع الصنعة فقال للمقربين اليه : لاي شيء يصلح هذا الصندوق ؟ فاجاب كل منهم بما رآه . ولكن سيد الفاتحين لم يعجبه قولهم وقال انما يليق هذا الصندوق لحفظ الياذة اوميروس

وفي ايام الاسلام ظفر الحجاج بن يوسف عامل بني مروان بصندوق عجيب من ذخائر الفرس فامر بفتحه فوجدوا صندوقاً آخر ففتحوه فوجدوا صندوقاً آخر ثم رابعاً وخامساً وسادساً وسابعاً فقال الامير : لعل فيه حماقة من حماقات الفرس . ففتحوا واذا فيه بطاقة مكتوب عليها هذه العبارة : من مشط لحيته في كل يوم طالت : ونحن لم نخرج عن الموضوع لان هذه الوصية كانت مكتوبة على قطعة من الحرير واني اقلب الطرف يميناً وشمالاً فلا اجد من اوصيه بها ليخبرنا بصحتها بعد العمل بها

ولا يخفى عليكم ان عرب المشرق هم الذين احيوا علوم العرب ونشروها وهاهم عجم العرب يعملون في هذه السنة الآن في المانيا وفرنسا وانكلترا وايطاليا وهولاندة واسبانيا والروسيا وسائر بلاد اوربا واميركا ولا امل لي الا ان ارى اهل مصر يشاركونهم فهم احق بتراث اجدادهم ولا يكون ذلك ولن يكون الا بالعناية بالكتب

هل اتاكم حديث فرنسا وناهيكم بها في العلم والحضارة والعرفان؟

ان مدينة مصر الاسلامية مدينة لعظيمين في انشاء دور الكتب العمومية

اولهما يرجع الى ايام الحروب الصليبية . فان الملك القديس لويس وهو التاسع بهذا الاسم شن الغارة على مصر في اول دولة المماليك البحرية ثم عاد ادراجه مهزوماً ولكنه رجع ظافراً بفكرة جيدة ومأثرة جميلة . وهي انه اقتبس عن اجدادنا فكرة جمع الكتب بعضها مع بعض في دار واحدة وفتحها في وجه الجمهور لينتفع بها الخاصة والعامة

اترك الكلام لكاتب سيرته وامامه في صلواته فقد قال ما خلاصته :

« ان الملك التقي الورع القديس لويس وصل الى سمعه وهو فيما وراء البحار ان سلطاناً من سلاطين الشرقيين يبذل عنايته في البحث عن الكتب المختلفة الانواع وفي استنساخها على نفقته ثم يضعها في دار عمومية ليستفيد من مراجعتها علماء بلاده فانه كان يجعل هذه المجاميع تحت تصرف جميع الطالبين . فاراد القديس لويس ان يتشبه بهذا السلطان وعزم على بذل المال بمجرد عودته الى فرنسة لنسخ الاسفار النافعة

وبمصابيح الكتب المقدسة التي يحلّ لها الضوء عليها في الاديار ليتمكن هو ورهبانه العاكفون على علوم الادب من درسها وحرثها للانتفاع بها وافادة الجار والقريب بعلومها . وقد انجز هذا القصد فأمر باعداد مكان لائق امين في باريس جمع فيه كثيراً من تصانيف القديس اغسطينوس وامبروز وجيروم وغريغوار وبقية ائمة المذهب الارثوذكسي . وكان يذهب في اوقات الفراغ للقراءة في هذا المكان ويسمح للغير عن طيبة خاطر بمشاركته في ملذاته الراقية . وكان يؤثر استنساخ الكتب على شراء اصولها لان ذلك في رأيه من شأنه ان يزيد في عدد الكتب المقدسة ويجعلها اكثر فائدة . وكان حينما يقرأ في تلك الكتب يحضر من خدمه وحاشيته الذين لا يفهمون اللاتينية يترجم لهم بالافرنسية ما لا بد كونه من العبارات .

غير انه في آخر عمره اصابه دخل في عقله فبدد شمل تلك المجموعة وامر في وصيته بتوزيع الباقي على الاديار

واما الحين الثاني الذي حدث لنا في فرنسا فيرجع الى عهد قريب منا وبيان ذلك ان القائد بونابرت لما حمل حملته على مصر في آخر القرن الماضي على التاريخ الميلادي نهب كثيراً من بقايا الكتب النفيسة التي كان اجدادنا قد الفوها او دونوها بعد الفتح العثماني . وكل من ذهب الى باريس او اطلع على فهرس دار الكتب الاهلية فيها يأخذه العجب العجاب ثم لا يساوره الا الاسف والاحزان . فلقد اصبحنا اذا احتجنا الى شيء من مؤلفات المصريين الخاصة بمصر لا نرى منها شيئاً في بلادنا ولا بد لنا من الرحلة والتغرب لطلبها في بلاد الغرب

ولقد ادرك محمد علي ذلك عند ما اراد ان يجدد العلم في ربوع مصر فارسل نفراً من طلبة الازهر الشريف فعادوا وافادوا حد افادتهم . ومن بينهم المرحوم رفاعة بك الطهطاوي انشأ والف وصنف [illegible] وترجم وعرب وكتباً يقال عنه ربى اولاده .

اعلموا ان للعرب وللاسلام سراً عجيباً في تاريخ الحضارة والعمران . فالعرب اينما حلوا انتشرت لغتهم قليلاً قليلاً ثم سادت رويداً رويداً ثم انتهى امرها بالانفراد والاستقلال . كذلك الاسلام اينما انتشرت رايته استهوى العقول والالباب . ولكن الغرب لم يهتم الا بنشر علوم العرب ودين العرب حتى لقد قال الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك عجبت لهذه الاعاجم ملكت الفرس لم تحتج الى العرب وملكت العرب لم تستغن عنهم . وهذا ما كان يقول هذا الخليفة ودولته اموية عربية

محضة : وماذا كان يقول لو عاش حتى رأى عصر العباسيين او لو بعث من قبره هذه الايام ورأى حاجة العرب الى الاعاجم في كل شيء من مرافق الحياة وحاجتهم اليهم حتى في احياء آثارهم او تهافتهم على اقتناء مآثرهم

ماذا كان يقول لو علم بالقصة الآتية ؟

تعلمون ان التتار هم الذين خربوا دولة العرب ودكوا معالم الاسلام ومع ذلك فمن اغرب الغرائب واعجب العجائب انهم ما لبثوا ان دانوا بدين العرب المغلوبين وتشبهوا بملوكهم المائدين في احياء العلوم وتوسيع نطاق العمران . سر من اسرار الطبيعة لا نراه الا في شؤون العرب ومعارفهم . فبعد ان هلك هلاكو وبعد ان مارت الارض تحت تيمور لدحلته في تامورها جاء احفادهما فدخلوا في دين الله افواجاً هم واقوامهم وارتفع بهم مناره في بلاد آسيا الوسطى وفي بلاد الهند الى اوائل الجيل الماضي ومن اشهرهم في العلم والعلماء الغ بك واسمه محمد بن شاهرخ اعتنى هذا الرجل بعلم الفلك والف فيه زيجا باللغة الفارسية ترجمه الى العربية بعض افاضل المصريين والترجمة في خزينتي بمصر وجمع هذا الرجل خزانة من الكتب النفيسة رأيت من بعض بقاياها كتاب الصور السماوية لعبد الرحمن بن عمر بن محمد ابن سهل الصوفي ويكنى بابي الحسين ويعرف بكتاب صور الكواكب وبكتاب الكواكب الثابتة وهو الذي اريد ان احدثكم عنه في هذه الساعة

هذا الكتاب لا ابالغ في فضله ولا اذكر شيئاً من محاسنه وانما اقول لكم ان الروس عرفوا قدره فطبعوه في بلادهم ثم عهدوا الى احد علماء الفرنسيين بترجمته الى اللغة الفرنسية وطبعوا هذه الترجمة ايضاً في بطرسبرج . وهذا الصنيع المزدوج يدلكم على فضل الكتاب وفوائده . واذا بحثتم في ارض مصر من الشلالات الى الاشاتيم ومن بادية العرب الى صحراء لوبيا لا تجدون سوى الترجمة الفرنسية وسوى الترجمة الفارسية في دار الكتب الخديوية اما الاصل العربي فقد لبس طاقية الاخفاء وطار في الفضاء وهجر ديارنا وواصل عبره فيما وراء البحار ورحل عن ارض اهين بها الى بلاد ظهرت قيمته بين اهلها بحيث ان العرب الذين صدر الكتاب بلغتهم اذا احتاجوا الآن لمراجعته وجب عليهم ان يتقنوا احدى هاتين اللغتين الفرنسية او الفارسية او ان يذهبوا الى بطرسبرج وان استبعدوها فالى باريس وهناك يجدون منه خمس نسخ استغفر الله بل ستاً لان السادسة هي التي سأتكلم عليها . ففي سنة ١٨٩١ عثر يوسف بك خلاط على نسخة ملوكية

من هذا الكتاب مكتوبة على ورق الحرير بألوان مختلفة بالنسخ والثلث وقد بلغ الكتاب فيهما نهاية الاجادة والاتقان وازدانت بصور ملونة باهية زاهية يتدفق فيها الذهب واللازورد على احسن شكل واجمل مثال .

وفوق هذه المزايا التي تجعل للنسخة قيمة يتنافس فيها المتنافسون ويتعشقها العارفون فانها حوت امراً آخر يزيدها قيمة لدى اهل الدراية . ولكن اين هم في ديارنا ... وذلك انها مكتوبة برسم خزانة الملك العالم المؤلف ( الغ بك ) وعليها اسمه بخطه فصارت بذلك نادرة النوادر وذخيرة المدخار .

عرضها يوسف بك على دار الكتب الخديوية فقومتها اني لاستحي من ذكر القيمة .... ولكن اقولها لكم همساً بمقدار تقريبي . قومتها بخمسة عشر جنيهاً مصرياً . وظننت ان ذلك شيء كثير . وكيف لا وهذا المبلغ يساوي الالف ونصف الالف من القروش او خمسة عشر الف مليم : توجه صاحب الجوهرة الى الغازي مختار باشا فزاده الربع . توجه الى الارسالية العلمية الفرنسية بالقاهرة الكائنة الآن بجوار دار نظارة المعارف الحالي فضاعفت له الثمن اربع مرات ووعدته فوق هذه المساومة بوسام المجمع العلمي الفرنسي . فقبض الثمانين جنيهاً ولا ادري اذا كان احرز النيشان ولكنه اشترط ان يكتب اسمه وبيانه على تلك النسخة فقبل القوم شرطه وارسل الكتاب الى باريس تكميلاً لنصف الدستة واصبحت سادسة ستة .

روى صاحب كتاب الفهرست ان ابا زكريا يحيى بن عدي النصراني المتوفى ببغداد سنة ٣٦٤ قال انه رأى في تركة ابراهيم بن عبد الله الناقل النصراني كتاب السماع الطبيعي كله وكتاب البرهان لارسطو مشروحين بقلم الاسكندر الافروديسي وعندي قطعة نادرة من ( كتاب البرهان ) وانهما عرضا عليه بمائة دينار وعشرين ديناراً فمضى يحتال في التدبير ثم عاد فاصاب القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل خراساني ( اعجمي من الفرس ) بثلاثة آلاف دينار وكانت هذه الكتب مما يحمل في الكم .

قال القاضي الاكرم الوزير القفطي المصري بهذه المناسبة في كتابه المدرج بتراجم الحكماء المطبوع في ليبسك من اعمال المانيا ما نصه :

« فانظر الى همة الناس في تحصيل العلوم والاجتهاد في حفظها والله لو حضرت هذه الكتب المشار اليها في زمننا هذا وعرضت على مدعي علمها ما ادوا فيها عشر معشار

يذكر » وماذا كان يقول لو سمع الحكاية التي رويتها لكم عن كتاب الصوفي . ثم ان الخراساني اشترى الكتب بثلاثين ضعفاً واما الفرنسيون فاشتروا كتاب الصوفي باربعة اضعاف لانهم لم يجدوا في مصر من يزاحمهم كما جرى في بغداد

واقول لكم ان يحيى بن عدي النصراني المذكور كان من اكابر المؤلفين والمترجمين ومحققي الفلاسفة وكان من المغرمين بجمع الكتب ونسخها بيده وكان اوحد دهره ومذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية . رآه ابن النديم في سوق الوراقين فعاتبه على كثرة نسخه فقال : « من اي شيء تعجب في هذا الوقت . من صبري ؟ قد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما الى ملوك الاطراف وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ولعهدي بنفسي وانا اكتب في اليوم والليلة مائة ورقة . »

ونحن نعلم ان النويري المصري صاحب كتاب نهاية الارب في فنون الادب كان يكتب في اليوم والليلة ثلاثة كراريس اي ستين ورقة . ولم يبلغ شأو هذا المتقدم مع ان جميع المؤرخين يمجدونه باسرهم وهذا الذي سترون اثره الجامع لكل العلوم والمعارف في السنة المقبلة ان شاء الله

كل هذه الاعمال وهي قطرة من بحر تدلكم على مقدار الغرام بالكتب وانه اذا استولى عَلَى العقل فلا يجد المدنف العاشق لذة في شيء آخر . وهذا الغرام ليس قاصرا عَلَى الشرق او على الغرب بل هو داء مستحكم في نفوس الناس عَلَى اختلاف الاوطان والاديان والاجناس

ونرجع الى ذكر السرقات في الكتب واروي لكم حادثتين وقعت احداهما لرجل من افاضل الاسكندرية وكان للثانية شأن كبير بالجامع الازهر في القاهرة

فمن الرجال الذين يحق للاسكندرية ان تفتخر بها انجبهم ابو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري النحوي الجغرافي الف كتاباً فيما اختلف وائتلف من اسماء البقاع وقد ضبطه وافنى في تحصيله وتحقيقه عمره فاحسن فيه كل الاحسان فجاء ابو بكر زين الدين محمد بن موسى الهمداني المشهور الحازمي المتوفى سنة ٥٨٤ فسطا عليه برمته وادعاه واستجهل الرواة فرووه له . نبه عَلَى ذلك ياقوت الحموي في صدر معجم البلدان بقوله : « ولقد كنت عند وقوفي عَلَى كتابه ارفع قدره من علمه وارى ان مرماه يقصر عن سهمه الى ان كشف الله من خبيئته ومحض المحض عن زبدته » اقول انه رغماً عن هذا التنبيه مازال الكتاب مشهوراً باسم السارق فان صاحب كشف الظنون لم يذكر

غيره وسماه كتاب ما اتفق لفظه واختلف مسماه في الاماكن والبلدان المشتبهة في الخط . وفي كل حال فالكتاب لم يصل الينا

واما الحادثة الثانية فقد وقعت بالقاهرة في خلال القرن التاسع للهجرة . وذلك ان الامام شهاب الدين ابا العباس احمد بن محمد القسطلاني المصري المتوفى سنة ٩٢٣ الف في السيرة النبوية كتابه المشهور المتداول بيننا الان وهو « المواهب اللدنية بالمنح المحمدية » فما راعه بعد ان فرغ من تبييضه في سنة ٨٩٨ الا وقد رفع جلال الدين السيوطي دعوى عليه امام شيخ الاسلام زكريا الانصاري . وهذا بمعنى ماورد في صحيفة الدعوى « انه يسرق من كتبه ويستمد منها وينسب النقل الى نفسه » فطالبه شيخ الاسلام ببيان ما ادعاه . فقال انه نقل عن البيهقي وله عدة مؤلفات فليذكر انه نقله عنه . ولكنه رأى ذلك في مؤلفاتي انا وكان الواجب عليه ان يقول نقل السيوطي عنه

ماذا كانت النتيجة ؟ انظروا واعجبوا

صدر الحكم الى القسطلاني بالترضية اللازمة للسيوطي وازالة ما في خاطره .

كيف كان التنفيذ ؟

مشى القسطلاني من القاهرة الى الروضة ( جزيرة النيل ) وكان السيوطي معتزلا عن الناس فلما وصل الى بابه دقه فقيل له من انت ؟ فقال انا القسطلاني جئت اليك حافيا لتطييب خاطرك . فقال له : قد طاب . ولم يفتح له الباب

فأين ذلك الزمان مما نحن فيه الآن ؟ ارأيتم لو رفع المجني عليهم قضاياهم من هذا القبيل على السارقين الذين فاقوا القسطلاني قولوا لي بربكم هل كانت تكفينا المحاكم الشرعية والبطريركية والاهلية والمختلطة والقنصلية ولجان الفن الاداري ؟

لعمري ان تجار الاحذية كانوا يفلسون كلهم في يوم واحد لو اقتدى السراق بما فعله القسطلاني !! ولكن التبجح وانتهاك الحرمات وصلا في زماننا الى درجة لا مزيد عليها خصوصا وان انتشار الطباعة ساعد على نمو هذا الطبع

وتلك الشناعة قد كان لها اصل عند العرب في مصر والاندلس وان كان الاثر الناطق بذلك قد ذهب من ايدينا ولكن الافرنج حفظوه لنا . فاثابهم الله خير الثواب ووفقنا الى اقتفاء خطواتهم في النافع بدلا من تهالكنا على تقليدهم في كل ضار

اخبرني الاستاذ الفاضل حفني بك ناصف انه رأى خطبة محفوظة بمكتبة ويانا

[illegible] في جملة ما اوردناه من آثار العرب وثمرات عقولهم وهذه الخشبة منقوشة عليها بالحروف كتابة عربية مقلوبة على الطريقة المألوفة في اصطناع الاختام وانها كانت مستعملة لطبع الاوامر العسكرية وتوزيعها على الجنود كما هو الشأن في ايامنا هذه في « الفارقة العسكرية » وذلك يستفاد من العبارات المنقوشة عليها وهذه الخشبة يرجع عهدها للفواطم وربما نشر صورتها عن قريب بعض علماء المستشرقين فتكون برهانًا على تولد هذا الفن بديار مصر

واما الاندلس فقد ترقت الى ما وراء هذه الخطوة الاولى فقد كان للاندلس في هذا الباب ثلاث خطوات

الاولى انهم قلدوا مصر في عهد الفواطم ولكن اثرهم لا يزال باقيًا في ديارهم وها انا اطرفكم بصورة فتوغرافية منه كهدية للعيد السعيد وهي صورة الطابع الذي كان يستعمله اهل الاندلس في مدينة المرية عثروا عليه في اطلالها وخرائبها وهو مصنوع من الخشب والكتابة التي عليه تدل على انه كان مستعملا في قيسارية المرية ولفظة قيسارية تدل على السوق ولا تزال مستعملة بهذا المعنى في القاهرة وفي كثير من مدائن الشرق واصلها مشتق من اسم قيصر كما انه اسم موضوع للدلالة على مدائن كثيرة بآسيا الصغرى منسوبة الى قيصر ولا شك ان هذا الطابع كان مستعملا بصفة الدمغة ( التمغة ) التي كانت مستعملة في مصر الى عهد قريب لوضعها على الاقمشة والربايط في نظير تأدية الرسوم المطلوبة لخزينة الحكومة

كذلك كان ذلك الطابع يوضع على الامتعة والطرود التي يجب دفع الرسوم عليها قبل دخولها الى السوق اي القيسارية في تلك المدينة مدينة المرية كما يستفاد من الكلمات المكتوبة فيه وهي : طابع قيسارية المرية عام خمسين وخمسمائة

واما الخطوة الثانية فهي ان الاشراف على دار الطباعة كان من خطط الدولة · يدلكم على ذلك النص العربي الذي نبه اليه العلامة جايانجوس الاسباني وهذا النص وارد في كتاب ( الحلة السيراء ) لابن الابار الاندلسي المشهور وقد طبع العلامة دوزي الهولاندي قطعة وافرة من هذا الكتاب النفيس في مدينة ليدن من سنة ١٨٤٧ الى ١٨٥١ · وانتم تعلمون ان ابن الابار هو الذي ارسله صاحب الاندلس يستنجد صاحب تونس · وهو ذلك الرسول الذي وقف بحضرة ملك تونس وانشده تلك القصيدة الفائقة الرنانة التي تستفز الجبان ويلين لها قلب الجماد · قال في مطلعها :

أورثك مجد تستحيل الله أبدا    ان النبيل الى محاتها وصا

ويدل التعقد ان ابن الابار يقول في كتابه المذكور ان عبد الرحمن الناصر الخليفة الاكبر (ولي بدر بن احمد الوزارة والحجابة والقيادة والخيل والبرد وكان يطرد اي بدر) بالولايات فتكتب السجلات في داره ثم يختمها الطابع فالطابع وتخرج اليه فيبعث المثل ويعقدون الى يديه . على ان هذا النص سقيم ويحتاج الى تقويم ولا بد من مراجعة الاصل والمقارنة بنصوص اخرى . وربما كان المراد وضع الطابع عليها . ولكن هذا الفرض بعيد لأن الطابع على ما نفهم لا يصح وجوده بيد غير الوزير كما هو معهود في الدول الاسلامية حتى الى الآن في الباب العالي . والاظهر ان ذلك يشير الى اخراج نسخ متعددة من مطبعة طرية تبليغها الى اهل الولايات ورؤوس الولاة

اما الخطوة الثالثة النهائية فلنا عليها دليل ما اورده لسان الدين ابن الخطيب في كتابه الموسوم بالاحاطة في اخبار غرناطة قال في ترجمة الشيخ ابي بكر القلنسي ما نصه :

(والف كتاب الدرة المكنونة في محاسن اسطوانة والف ثانياً حسناً في ترحيل الشمس ومتوسطات النجوم ومعرفة الاوقات بالاسحار . ونظم ارجوزة في شرح ملاحن ابن دريد ومدار ارجوزة في شرح كتاب الفصيح ورفع الى الوزير الحكيم كتاباً في الخواص وصنعة الامدة وآلة الطبع الكتاب غريب في معناه)

هذه العبارة اكتشفها الفاضل من علماء الافرنج فكتب عنها شرح طويل في جرنال آسيا سنة ١٨٥٢ فأنتم ترون فضل علماء اوربا في البحث والتنقيب عن مآثر العرب . على انهما اراد تصحيح العبارة العربية من حيث متانة الكلام وتصور ان فيها بعض الالتباس والابهام . فأخذ احدهما بتصحيح الجملة الاخيرة بأن يبدل كلمة من الاعراب فقال (كتابه في خواص وصنعة وآلة طبع الكتب كتاباً غريباً في معناه) ولا يصح المثل بهم اني بسبب هذا التصحيح القليل النفع ومخالفة الاعراض اما الموضع ابو قد اكتشفنا هذا البرهان لكي نعلم ان هذه الصناعة وجدت بين ايام العرب وهو من باب الحقيقة النسبية ولم تجد لنا الآن اثراً محسوساً ومن المعلوم ان الامدة (جمع مداد) تحتاج الى تركيب مخصوص لكي تخرج منها نسخاً متعددة لذلك كان المؤلف الاندلسي بين صنعتها وبين طبع الكتاب . ولما كان هذا الاستنباط البديع الغريب لم يسبق له مثال بالاندلس رأى صاحب الاحاطة وجوب التنبيه على فضل الكتاب فقال غريب في معناه